الطير تأكل من رؤوسهم

قصة بقلم عبد الرحمن مجيد الربيعي

نهض صلاح مخدرا بعد أن بقي ممددا في فراشه وقتا طويـــلا مستدرا خيوط الاحلام الناعمة التي تنسج في رأسه ملامح لقائه المرتقب مع (ن) . وكيف تدخلت الكلية كالمحتلة وفق تلـك الطقوس الغائـرة التي توقظ ما خفت من تطلعات ، وكيف تعتزل الاخرين وتتربع عـلى عرشها المعزول ، ثم أخذ يهيىء الكلمات المناسبة التي يحملها تحيـة الصباح ويقدمها أوسمة لصدرها الثائر ، وكيف يعلن لها دائما :

ـ لم أدخل الدرس الاول مطلقا منذ أن وطئت قدماي أرض هـذه الكلية الملعونة قبل أربع سنوات .

وتترك شعرها الاشقر هبة لتحركات الهواء في فضاء الممر وتعلـن بدلال : ـ أيها الكسول !

***

أخذ صلاح يؤدي مهمات الصباح الباردة ، تمارين رياضيـــة ونفس عميق ، وموسيقى الصباح ، وقرقعة الملاعق في أقداح الشاي ، والكتب ، والباص ، ثم الجـلوس بأمان في زاوية نادي الكليـــة ، الندخين ، واستعراض الوجوه الرائعة .

فتح شباك الغرفة على مصراعيه . الجو رائع فلا بد من أناقـــة مفرطه ، لافتص من صمت الاشياء حتى يبدأ الدوار مفعوله !

وانتبه الى صحيفة « الثورة » الملقاة على المنضدة والى العنوان الكبير الذي يعلو صفحتها الاولى : « اعدام الجواسيس » ، سهرتـه كانت منعبة مع الراديو منصتا الى قرارات الحكم التي صدرت بحـق خمسة عشر جاسوسا كانوا يزرعون المدينة بالالغام والشائعات ثـــم يقدمون أسرارنا للعدو بيسر . ونظر بتركيز الى العنوان . وتخيـــل أعناقهم التي جرت من خلالها كلمات الخيانة ، وكيف ستتهشم لتزهـق أرواحهم المدنسة . ثم تذكر دفاعهم الهزيل ، ما أسهل الخيانة في عرف هؤلاء . انه غالبا ما يجد نفسه مختضة بهذا الشكل الهمجي في لحظات المواجهة أمام مواقع السقوط التي تسرق بعض الناس .

وخطا صوب الراديو وفتحه ، وتسرب صوت المذيع الى فضـــاء الغرفة وهو يعيد قراءة الاحكام ضمن نشرة الاخبار الصباحية ، وفكـر ان يمكث بعض الوقت منصتا لهذه القرارات للمرة الثانية ، وأخـذ يدور داخل الغرفة ملقيا نظرات عجلة على الكتب المبعثرة والى صورة الوجه البدوي المعلق على الجدار والذي يذكره بـ (ن) دائما .

ـ عرفت وجهك قبل أن اراك !

وتشير بيدها اليه وترد : ـ يا لك من متفلسف !

ـ صدقيني ، في صورة التقطتها من مجلة ملونة ، ترسبت فـي عينيها فاضطررت الى تعليقها على الجدار ، وعندما رأيتك ، هتفت انني قد وجدت الاصل ، ولكن اعلمي بأن الصورة أكثر سلاما منك . أمـــا أنت فأكبر مشاغبة في الدنيا ، عيناك معركة !

***

حمل صلاح الراديو معه وعلقه قرب المغسلة . أخذت الفرشـاة تمخر بين أسنانه محدثة رغوة كبيرة على فمه ، وضحك لمنظـر وجهـه المرسم في المرآة ، كم يبدو الانسان قبيحا في بعض اللحظات مهمـا كانت ملامحه ! وقبل أن تركد البسمة على وجهه سمع صوتا آخر يعلن بأن الاحكام قد نفذت صباح هذا اليوم ، وأن جثث الخونة معلقة في ساحة التحرير شاهدا على أن الشعب أقوى منهم ، ثم يأتي صـــوت ثالث يطالب المواطنين بالتجمع في ساحة الميدان لاظهار تأييدهم أمام الرأي العام ، وظهرت من وجهه علامات الارتياح واستعاد تلك الحماسة التي كادت آن تجف في خضم الحياة الباردة التي أعطاها جســـده وراسه منذ سنين . فاسرع بارتداء ملابسه وترك ذقنـه دون حلاقة ، لتذهب (ن) وجميع النساء الى الجحيم ، النصف المشلول دائما ، ثم خفف من هذا الحكم عندما أعلن : لتذهب (ن) وحدها الى الجنة فوجهها الوردي لا يمكن آن يسلم للنار بسهولة ، ولكنها لم تفتح فمها بحديث عن الناس يوما .

ـ أنت أيتها البرجوازية المتعجرفة ، عدوتي الطبقية الاولى ونحن نعمل من أجل اسقاط قممكم وامتيازاتكم .

ونعلن بدلال : ـ أنتم تفهمونني خطأ !

ـ أريد أن أراك بين الناس ، قدماك في طريقهم . تمتلئيـــن بالحماس لانتصاراتهم وأفراحهم ، وتشاركين في مسيراتهم ، وآنـــذاك سأحبك حتما !

***

كانت الجموع تحتشد في ساحة « الميدان » واللافتات ترتفـع ، وتوقد حماس صلاح ، ووجد جسده في الخضم . كانت هذه بالنسبة له أعراسا رائعه تلغي كل تردده وتزرعه في المقدمة كالراية .

وانضم الى طلاب كليته ، انها ليست معهم ، ابنة الجشعين . كانوا جميعهم يدا واحدة وصوتا واحدا ، انه منجذب اليها بصورة ما، ولكن الاشياء قد رصفت بطريقة لا تسمح ليده بأن تأخذ يدها بنقاء ، وأحس بانه قد أصبح أكثر قابلية على البذل والعطاء . وها هو يمنـح صوته وحماسه الآن للحقيقة الانسانية وللتاريخ والناس . وغابت كل تلك التطلعات الملساء التي كانت تنزلق في قحفه ، وبقي لهاثه يعلو ، انها ليست المرة الاولى له ، كان يتظاهر دوما في المناسبات والثورات، وكان يندفع باصرار ، وكان جـــزاؤه السجن والايـــام المقرورة وراء القضبان ، وعندما يخرج يجد أن حماسه واصراره قد زادا .. (ن) يا ابنة الضالين ، أين وجهك في هذا الجسم العظيم ؟ وتأفف وأحس بأن مهمات الرجال أكبر من السجود لعيني امرأة تمارس ترفعهـــا الطبقي بغباء .

وأخذت المظاهرة تمضي .

ـ أنت فرح يا صلاح .

ـ انني في عرسي !

ـ منذ الاحتلال الانكليزي حتى اليوم لم تكشف شبكة تجســس واحدة ، وما تعليق « عدس » الا ستار ، ولكنهم تركوا ألف « عدس » آخر يمرح بأمان .

وأخذهم الهتاف الهادر : ـ جبهة وطنية !

وانتزعا صوتيهما من حديثهما المنفرد ورمياهما مـــع الاصوات الهائفة . وأخذ صلاح بالتعرق رغم برودة الجو ، وأحس على نحـــو غريب بانه يهدر كالشلال ولن تطيق قوة على اخماد حماسه .

وعند منتصف « شارع الجمهورية » اندفعت بعض النساء الـى صفوف المتظاهرين وأخذن يلقين بالحلوى على الرؤوس وهن يزغردن بزهو ، واندس بعض الصبية بين أرجل المتظاهرين ليجمعوا الحلوى .

ـ لماذا لا تكون (ن) معنا الآن ؟

ثم أردف :

ـ لو فعلت ذلك لاستطاعت أن تأخذ قلبي بيسر ولا حاجة لكلماتها

التي تسطرها لي على صفحات الكتب ؟

بلع ريقه والتقط كلمات الهتاف ، وكانت يده ترتفع الى أعلى ، وعيناه تزدادان اتساعا وتحديا ، ستبقى القمم عالية ولن أرمي رأسي بخدعة أخرى ، الوطن يريد صوتي ، لن يكون صلاح لامرأة ، صلاح ملك للحقيقة والتاريخ والمظاهرات .

ـ أنظر ، الجثث تلوح لنا .

أجاب صلاح :

ـ لا أستطيع تمييزها ، لقد أخذ نظري بالهفوت !

ـ أنظر ثياب الاعدام الحمراء .

ـ قلت لك لا أستطيع النظر من هذا البعد .

وأخذ الزحف الهادر يستمر ، وعندما توقفت المسيرة عند ساحة التحرير طالعتهم الجثث المعلقة على المشانق المنصوبة بصورة دائرية . وحاول الحصول على مواقع لاقدامه وسط الالوف المحتشدة ، على الارض والعمارات وأعمدة الكهرباء ، ثياب الاعدام الحمراء تلتمع مع الشمس وهي ترتفع كوثائق الادانة لكل من يحاول أن يمد يده من جديد ، احدى عشرة جثة علقت كل اثنتين في مشنقة ، والجثة الاخيرة علقت وحدها ، وقد ألصقت ورقة كبيرة في صدر كل واحدة حاملة اسم الخائن الذي كانته .

واستل صلاح جسده من بين المتظاهرين واندفع الى الساحة . كان مشهدا مرعبا . الاجساد معلقة من أعناقها والهواء يحركها فتنفتل يمنة ويسرة ، أواه ، انني أعلن صوتي ، كرروا هذا مع كل من خانوا ، في هذا الوقت ولا تؤجلوا أبدا . وأحس بأنه يتلوى تحت كابوس ثقيل ، وأخذ يفرك عينيه ليعيد اليهما صفاءهما حتى تلتصقا جيدا بهذا المشهد الخالد . جمع بصقة كبيرة ورماها ، ثم انتابه دوار مفاجيء ورغبة في التقيؤ ، فاستل جسده وانسحب من المكان ، وأخذ يهرول ويطلق حوارا منفردا أنزله على النفوس الضعيفة ، وسراق التاريخ... دناءة كبيرة ... سفالة ... يا صلاح اين تخبيء وجهك ؟ حياة واحدة لماذا لا نحياها بأصالة ونقاء ؟!

***

عاد صلاح الى بيته .

ـ هل رأيت الجثث ؟

كان صوت أخته مليئا بالفرح .

ـ نعم .

وأخذت تمسح التراب العالق على كتفه وتقول :

ـ شاهدتهم في التليفزيون !

وألقى بجسده على الكرسي ، وتابعت :

ـ هل أنت جائع ؟

ولم يدر بماذا يرد ، انه جائع فعلا . لكن الرعب قد دمر كل رغبة له في الطعام .

قال لها : أجلبي لي الراديو أولا .

ـ حسنا .

وأخذ يحرك مؤشره بين المحطات ، كان يبحث عن اذاعة العدو . ماذا ستقول ؟ وبماذا ستتحدث ، وأية طعنة جاءت الى رؤوس الخيانة؟ سننهيهم حتما ، اننا مصرون على هذا ، ولن نترك أبوابنا مفتوحة لتعيث بنا رياحهم .

وأخذ يستمع الى موسيقى كلاسيكية تبثها المحطة ، ثم أخذ المذيع بعدها يتلو نشرة الاخبار ، ويعلن أن الكنيست في اجتماع هام ، وأنهم قد هددوا ، وأنهم قد احتجوا ، وأنهم وأنهم ... تف ، جميعكم الى الجحيم ، ألم يدنكم الجميع ، فلماذا لا تكفون ؟ الاحتجاج خدعة تمارس على مقاعد الامم المتحدة الانيقة ، وقد عرفنا كيف نحتج نحن .

واستمر المذيع في قراءته بأن هؤلاء لا علاقة لهم باسرائيل وأن كل جريمتهم أنهم يهود ، وضحك من هذا الادعاء ، ألم يستمعوا الى المحاكمات التي بثها راديو بغداد لليال متتالية ؟ ثم ازدادت ضحكته انطلاقا عندما واصل المذيع القول بأن (يو ثانت) قد أعرب عن أسفه لهذا الحادث ، يا (يو ثانت) المسكين لا تسقط أنت ولا تلوث صوتك، يا (يو ثانت) الانيق والبطر ان لغتنا غير لغة ملفات حقيبة (جونار يارنج) التي تدور من عاصمة الى أخرى ، وقد آن لنا ان نتكلم .

ـ أتريد الطعام ؟

وهنا أغلق الصوت القبيح الذي ينطلق من المذياع ، وقال لاخته وهو فرح للحماس الذي يطفح به وجهها الحلو : ـ نعم هاتيه .

بغداد

عبد الرحمن مجيد الربيعي

دار الآداب تقدم

في الموسم الجديد القادم

مجموعة هامة من الكتب الجديدة

بين آدم وحواء

للمرحوم الدكتور زكي مبارك

●

الشعر الجديد ... لماذا ؟

تأليف صلاح عبد الصبور

●

صحراء التتر

رواية تأليف دينو بوزاتي

ترجمة خليل الهنداوي وابراهيم المرجاني

●

عن الرجال والبنادق

بقلم غسان كنفاني

اصول الفكر الماركسي

تأليف اوغست كورنو

ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

●

صورة الفنان في شبابه

رواية تأليف جيمس جويس

ترجمة ماهر البطوطي

●

الشوارع العارية

رواية تأليف فاسكو براتوليني

ترجمة ادوار الخراط

●

مختارات من شعر

علي محمود طه

تقديم صلاح عبد الصبور